

دراسة في

النهج العقدي الإباضي

من خلال الروايات الحديثية الأولى

خميس بن راشد العدوي

مكتبة الغبراء

**دراسة في المنهج العقدي الإباضي
من خلال الروايات الحديثية الأولى
خميس بن راشد العدوي**

دراسة في المنهج العقدي الإباضي

تأليف: خميس بن راشد العدوي

الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الغبراء - هاتف: ٤١٩٤٢٦

سلطنة عمان - بهلا

ص.ب: ١١٥

الرمز البريدي: ٦١٢

**دراسة في المنهج العقدي الإباضي
من خلال الروايات الحديثية الأولى**

خميس بن راشد العدوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي
الأمين، وعلى آله وصحبه، وعلى تابعيه بإحسان إلى يوم
الدين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد

فقد طلب مني إخوة أعزهم أن أكتب حول المنهج
العقدي للإباضية خلال القرون الثلاثة الأولى، وهذا
موضوع مهم وجليل، تنبع أهميته من أهمية الحقبة
المحددة في البحث، حيث تعدّ هذه القرون الثلاثة
الانطلاقة الأولى للفكر الإباضي التي حددت معالمه
وأقامت منائره، وهي فترة -في عمومها- لم تقتحم فيها

على المذهب الإباضي أفكار الآخرين، وإنما كانت ناهلة من معين الإسلام العذب، ومتأطرة بالفهم الأول للإسلام، حيث مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم غامرة بأشعتها الوجود، وكاشفة عن كل جوهر من العقائد والأحكام، وطاردة لكل آثار الجاهلية الوثنية، في هذه المدرسة تعلم فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم، ومنهم السيدة العظيمة عائشة أم المؤمنين والفقهاء الراسخ عبد الله بن عباس اللذان كانا المعلمين المباشرين لجابر بن زيد واضع أسس المذهب ومشيد أركانه على سمع وبصر من هذين الصحابييين الجليلين وغيرهما من الصحابة، هذه هي الأهمية.

وأما الجلالة؛ فلا ريب أن علم الاعتقاد هو أشرف العلوم، حيث يفرد الله تعالى بالوحدانية، ويقر عقائد الغيب كما أنزلها الله تعالى وفق قواعد العلم السليمة، ويحفظ عقول المسلمين من الميوعة الفكرية، ويحصن تفكيرهم من الاختراق الخرافي والعلماني على حد سواء، وهو مع ذلك يقر حقائق الوجود كما هي. لأجل هذا وذاك؛ وجدنا رواة الإباضية خلال هذه الفترة ينقلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقيم حلقات العلم في مسجده الشريف، ويعتني عناية خاصة بحلقة العقيدة، فيجلس إليها ويبحث الجالسين فيها على طلب علوم التوحيد، وما ذلك إلا لأجل العناية بها، ولترسيخها في نفوس المؤمنين:

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال خرج رسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم إلى المسجد فوجد أصحابه عزين^١ يتذكرون فنون العلم، فأول حلقة وقف عليها وجدهم يقرؤون القرآن فجلس إليهم فقال: (بهذا أرسلني ربي) ثم قام إلى الثانية فوجدهم يتكلمون في الحلال والحرام، فجلس إليهم ولم يقل شيئاً، ثم قام إلى الثالثة فوجدهم يذكرون توحيد الله عز وجل ونفي الأشباه والأمثال عنه، فجلس إليهم كثيراً ثم قال: (بهذا أمرني ربي) قال جابر: لأن التوحيد معرفة الله عز وجل، ومن لا يعرف توحيد الله فليس بمؤمن^٢.

١ عزين وعزون: جمع عزة على وزان عدة وهي الطائفة والجماعة من الناس. هامش ح/ ٢٨ من الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، بتصرف.

٢ مسند الإمام الربيع بن حبيب/ ح ٢٨، ونعنون له لاحقاً بالمسند.

هذا؛ وقد ارتأيت أولاً أن أعنون البحث بعنوان "المنهج العقدي للمدرسة الجابرية"، لأن علماء فترة البحث هم الطلاب الذين حملوا العلم عن الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه، وتأثروا به كثيراً، وكانوا على تقعيداته العلمية والفكرية ومنطلقاته السياسية، ولكن أشار عليّ بعضهم أن يكون العنوان "المنهج العقدي للمدرسة الإباضية" حتى لا يقع الالتباس في ذهن القارئ أن للإباضية مسميات لمدرستهم غير تلك المعروفة عنهم، وأخيراً استقر الأمر على العنوان الآتي:

"دراسة في المنهج العقدي الإباضي من خلال الروايات الحديثية الأولى".

مفهوم المنهج العقدي

المنهج لغة : مأخوذ من النهج وهو السبيل والطريق^٣.

وهي كلمة ورد ذكرها في الكتاب العزيز بقوله تعالى :
((لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا))^٤.

والشريعة والشريعة لغة : هي مشربة الماء التي ترد
الشاربة إليها ، وفي الاصطلاح : هي ما سن الله من الدين
وأمر به^٥.

٣ لسان العرب ؛ ج ٢ ؛ ص ٣٨٣ ، بتصرف .

٤ المائدة / ٤٨ .

٥ لسان العرب ؛ ج ٨ ؛ ص ١٧٦ ، بتصرف .

وبذلك تكون الشرعة أو الشريعة هي أصل الشيء وأمه. والله تعالى جعل شرعة وجعل منهاجاً؛ فالشريعة هي النص الإلهي المنزل الذي يجب أن يكون أصلاً ومرجعاً لكل الخلق.

والمنهج: هو السبيل الذي يسلكه وارد هذه الشريعة، فمن حق الإنسان أن ينهج لنفسه سبيلاً يراه -حسب ضوابط العلم الصحيحة- هو الطريق العدل.

وبذلك يفترق معنى الشريعة والمنهج؛ فالشريعة أصل التنزيل الذي اتفق عليه المؤمنون، وقد اتفقوا على الكتاب العزيز وعلى كثير من الروايات الواردة عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلفوا في كثير منها أيضاً.

وأما المنهج والمنهاج فهو الذي سارت عليه كل طائفة من طوائف المؤمنين، وهو ما سمي بالمذهب والفرقة والطائفة، والمسلمون يقتربون من شرعة الله ويتبعون عنها بمقدار إصابتهم وجه الحق وضوابط العلم في مناهجهم.

وهنا نريد أن نكشف عن المنهج العقدي الذي سار عليه الإباضية خلال دفتهم الأولى التي نراها أصفى المناهج وأصدق السبل التي تعبر عن رؤيتهم، وهي ما نسميها بلحظة التوهج، ونسميها كذلك لحظة الإشعاع الممتد ما قبل الإشعاع المضاد، وتمثل داخل المذهب الإباضي

المرجع الأساس الذي يرجع إليه، والمعيار الذي يقاس عليه، والميزان الذي يحتكم إليه.

والعقيدة لغة: مأخوذة من العقد وهو الربط، ومنها عقدة الحبل، واستخدمت في علم التوحيد للدلالة على ما اعتقد في القلب من الدين^٦.

والعقيدة اصطلاحاً: هي القضايا العلمية الغيبية المأخوذة من شرع الله تعالى التي يجب على الإنسان أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً، وبالأخذ بها تكون نجاته، وبالتفريط فيها يكون هلاكه.

٦ لسان العرب؛ ج ٤؛ ص ٦٥، بتصرف.

قولنا: "القضايا العلمية" يخرج القضايا العملية كالصلاة والزكاة، والأخلاقية كالصدق وبر الوالدين .

وقولنا: "الغيبية" يخرج القضايا العلمية التجريدية كعلم الجبر والحساب .

وقولنا: "المأخوذة من شرع الله" يخرج علوم الطبيعة ونحوها كحقيقة أن القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور حول الشمس، فمن لا يصدق بذلك لا يهلك عند الله تعالى وإن كان قد جانب الصواب .

وقولنا: "التي يجب على الإنسان أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً" يخرج القضايا العلمية الغيبية المختلف فيها

كعذاب القبر، وسنين لاحقاً بإذن الله تعالى الموقف من ذلك.

ومثال ما ينطبق عليه التعريف؛ الإيمان بالله تعالى، وأنه واحد أحد فرد صمد، لا شبيه له ولا ضد ولا ند، وليس له كفؤاً أحد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً، والإيمان بالجنة والنار والملائكة والجن والكتب والرسل.

فمن ينكر شيئاً من ذلك فهو هالك والعياذ بالله، ولا بد لنجاته أن يؤمن بكل ذلك، وبكل ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز نصاً.

شروط أخذ العقيدة

من خلال استقراءنا لمنهج علماء المدرسة الجابرية نجدهم يشترطون شرطين لاعتبار القضية الغيبية أمراً عقدياً جازماً، والشرطان هما :

١ . تواتر السند : ونصوص الشريعة في ذلك على قسمين هما ؛ القرآن الكريم والحديث الشريف .

أولاً : القرآن الكريم :

وهو متواتر لا ريب في ذلك ولا شك، والمصحف الموجود بين المسلمين هو الكتاب المنزل من عند الله تعالى ، لا زيادة فيه ولا نقصان ، ومن قال فيه بالزيادة أو النقصان فهو عندهم كافر حقيق بالهلاك والخسران ، وقد رفض

أصحاب هذه المدرسة تلك الخزعبلات والأكاذيب التي تطعن في كتاب الله المجيد وتزعم كذباً وزوراً أنه حرف فيه أو أنقص منه أو زيد عليه، وللأسف الشديد وجدت في ذلك روايات عند البعض.

أما علماء المدرسة الجابرية فقد قالوا قولهم الذي يروونه حقاً من أول الأمر:

— "قال جابر: سئل ابن عباس عن القرآن؛ أيزداد فيه أو ينقص منه؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الزائد في كتاب الله) قال: (ومن كفر بحرف فقد كفر بالقرآن أجمع)^٧.

٧ المسند/ ح ٨٠٩.

ويرفض أئمة الإباضية تلك المزاعم الفارغة التي تشكك في كون المعوذتين ليستا من كتاب الله تعالى، ويرون أن من يقول بذلك كاذب آثم:

— "قال^٨: وقال عقبة بن عامر الجهني: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة، فقرأ بالمعوذتين فقال: (يا عقبة؛ إن هاتين أفضل سورة في القرآن والزبور والإنجيل والتوراة) وقد قال قوم: إنهما ليستا من القرآن. فقد كذبوا وأثموا"^٩.

ونجد ابن عباس شيخ جابر بن زيد يؤصل القضية بالاستدلال عليها من كتاب الله تعالى:

٨ القائل الربيع بن حبيب راوي المسند الصحيح.

٩ المسند/ ح ٨١٠.

— "قال ابن عباس: ولو أن أحداً زاد فيه أو نقص منه كان عند الأمة كافراً، والقرآن على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يزد فيه ولم ينقص منه، وأن الله أحاطه من ذلك فقال: ((وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ))^{١٠} والعزيز الذي عزّ أن يأتوا بمثله أو بشبهه أو بشيء في معناه، ولم يكن الله ليتمكن أحداً أن يزيد فيه أو ينقص منه، وهو كلامه وحجته على عباده، وإمام عباده الذي يكون يوم القيامة عليهم شهيداً، لو نقص منه شيء أو زيد فيه لتبين ذلك في تأليفه حتى يعلم أنه

ليس بقرآن، لأن الخلق لا يستطيعون أن يأتوا بمثل تأليفه أبداً^{١١}.

والإباضية يصرحون بما يروون أن القرآن الكريم على هيئته التي هو عليها الآن توقيفي منذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن جمعه كان من قبله عليه الصلاة والسلام كما علمه إياه جبريل:

— "أبو عبيدة قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه آية قال: (اجعلوها في سورة كذا وكذا) وما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والقرآن مجموع متلو^{١٢}.

١١ المسند/ ح ٨١١.

١٢ المسند/ ح ١٥.

وبذلك يكشفون عن موقفهم الواضح حول تلك الفتنة التي عصفت بالمسلمين حتى استغلها الملاحدة في الكيد للإسلام فقالوا إفكهم بأن القرآن محرف بالزيادة والنقصان، ولكن هيهات هيهات لغرضهم أن ينفذ وقد تكفل الله عز وجل بحفظه حيث قال: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ))^{١٣}.

إن المنهج العقدي للإباضية متمثلاً في المدرسة الجابرية منبني على الاستمداد المباشر من القرآن الكريم، وكل العقائد القطعية عندهم مأخوذة منه مباشرة، لأنه الكتاب الذي لا يحوم حوله أدنى شك.

ولذلك نجدهم يروون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم
بالعناية البالغة بتعلم كتاب الله تعالى وتعليمه :

— "قال الربيع بن حبيب : حدثني أبو عبيدة عن جابر بن
زيد قال : بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
قال : (علموا أولادكم القرآن ، فإنه أول ما ينبغي أن
يتعلم من علم الله هو) ^{١٤} .

ونجد أيضاً التحذير الشديد من نسيان القرآن الكريم :

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من تعلم القرآن ثم

نسيه حشري يوم القيامة أجزم) قال الربيع: الأجزم المقطوع اليد^{١٥}.

ثانياً : السنة النبوية :

إن أصحاب المدرسة الجابرية -ولا ريب- كانوا يأخذون بالسنة النبوية من أول أمرهم امتثالاً لقوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ))^{١٦} ومدوناتهم في الحديث الشريف من أول ما جمع من السنة النبوية المطهرة.

والروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث الحكم السندي عندهم على ضربين :

١٥ المسند/ ح٦.

١٦ النساء/ ٥٩.

■ متفق عليها : وهي التي تشكل في عمومها السنة النبوية ويشار إليها عندهم وعند غيرهم بالسنة المجتمع عليها ، وهي مع كون سندها أحادياً -في الغالب الأعم- إلا أن الإباضية قد أخذوا بها لأنها مجتمع عليها .

■ مختلف فيها : وهذه يعرضونها على كتاب الله تعالى ، وهذا منهج مستمد -عندهم- من القرآن الكريم لقوله تعالى : ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا))^{١٧} والرد بعد حياته صلى الله عليه وسلم يكون إلى كتاب الله تعالى وإلى السنة المجتمع عليها ، وهذا ما نرى أصحاب المدرسة الجابرية يثبتونه في روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الروايات يمكن أن

يستنبط منها سببان للاختلاف الذي حصل في الرواية؛ السبب الأول هو الاختلاف الذي وقع في الأمة، فأدى إلى انتحال الروايات التي تؤيد المذاهب:

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فعني، وما خالفه فليس عني)"^{١٨}.

والسبب الثاني هو الكذب والدس، والظاهر أن هذه طبيعة البشر مع الأنبياء كما يبين ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

— "جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من نبي إلا وقد كذب عليه من بعده، ألا وسيكذب عليّ

من بعدي كما كذب على من كان قبلي ، فما أتاكم عني
فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فهو عني ، وما خالفه
فليس عني" ١٩ .

وقد سلك أئمة الإباضية الأوائل هذا المسلك في تقرير
العقائد ، فعندما تأتيهم روايات يرون فيها مخالفة للحق
يعرضونها على كتاب الله تعالى .

وعند استقراء منهجهم في هذه الحقبة موضوع البحث
نجدهم يعولون في العقائد القطعية بأكملها على القرآن
الكريم ، لأنهم يرون أن الله تبارك وتعالى هو وحده
العالم بالغيب ، ولا يعلمه غيره إلا بما يوحيه الله تعالى

إليه، ولما كان التواتر شرطاً لأخذ الغيبيات فقد رأوا أن هذه الميزة لا توجد إلا في كتاب الله تعالى، وأما الروايات فلا ترقى إلى هذه المكانة، ولذلك عولوا على القرآن الكريم دون سواه.

أما الروايات الأحادية التي جاءت بالعقيدة فهي عندهم على ثلاثة أضرب:

أ. رواية موافقة لكتاب الله تعالى: وهذا النوع يأخذون به؛ على ما تقرر سلفاً من عرض الرواية على القرآن الكريم، فما وافقه فهو عنه صلى الله عليه وسلم، ولأن أخذهم بهذه الروايات هم آخذون أصلاً بالكتاب العزيز.

من أمثلة ذلك؛ قضية تنزيه الله تعالى وتقديسه عن
 الأشباه والنظائر، فالأصل في هذا قوله تعالى : ((لَيْسَ
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))^{٢٠} وقوله تعالى :
 ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ،
 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ))^{٢١} ونحوها من
 الآيات، ولذلك نجدهم يأخذون بالروايات التي تنزه الله
 تعالى :

— "قال جابر بن زيد : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس
 قال : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
 صفة الله، فسكت قليلاً رجاء أن ينزل عليهم عذابه،
 ونزل عليه جبريل عليه السلام بسورة الإخلاص :

٢٠ الشورى/ ١١ .

٢١ سورة الإخلاص .

((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ،...)) إلى آخرها^{٢٢}.

— "وأخبرنا^{٢٣} أبو ربيعة زيد بن عوف العامري البصري قال: أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي عثمان النهدي أن أبا موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فلما دنونا من المدينة كبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال: (أيها الناس إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم) قال جابر: ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم عندنا: (إن الذي تدعونه بينكم وبين أعناق

٢٢ المسند/ح ٨٢٢.

٢٣ القائل الربيع بن حبيب.

ركابكم) وذلك أن الله تعالى يقول: ((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا))^{٢٤} وقال: ((وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ))^{٢٥} والتشبيه والتحديد لا يكون إلا لمخلوق، لأن المخلوق إذا قرب من موضع تباعد من غيره، وإذا كان في مكان عدم من غيره، لأن التحديد يستوجب الزوال والانتقال، والله تعالى عز عن ذلك^{٢٦}.

ومن ذلك أيضاً قضية خلق الأفعال؛ إذ يرى أئمة هذه المدرسة أن الله خالق كل شيء مصداقاً لقوله تعالى:

٢٤ المجادلة/٧.

٢٥ ق/١٦.

٢٦ المسند/ح ٨٢٥.

((ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ))^{٢٧} وقوله عز وجل: ((قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ))^{٢٨} ونحوهما من الآيات، وعلى ذلك فهم يأخذون الروايات التي تتساق مع هذه النصوص القرآنية.

— "قال جابر: سئل ابن عباس عمن قال: إنه يستطيع أن يعمل بما أمر الله به وأن يكف عما نهى الله عنه، من غير أن يخلق الله فعله. فقال: سأل سراقه بن جعشم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما العمل يا رسول الله في أمر مستأنف أم في شيء قد فرغ منه فقال: (بل

٢٧ الأنعام/ ١٠٢.

٢٨ الرعد/ ١٦.

في شيء قد فرغ منه) ثم قال: فيما العمل إذا يا رسول الله؟ فقال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)^{٢٩}.
— "وقال صلى الله عليه وسلم: (ما كان كفر إلا مفتاحه تكذيباً بالقدر)^{٣٠}."

"فهذه الروايات تدل على أن الله خلق فعل العبد، وأن العبد لم يفعله دون الله تعالى إذا قدره وعلمه، وعلم ما هو صائر إليه"^{٣١}.

٢٩ المسند/ح ٧٩٦.

٣٠ المسند/ح ٧٩٧.

٣١ المسند/ح ٨٠٢.

وهذه الروايات إنما هي لتقرير حقيقة خلق الله تعالى للأشياء ومنها فعل الإنسان، وحتى لا تحمل على الجبر فإنهم رَوَوْا أيضاً في المقابل الأحاديث التي تتفق مع حرية الإرادة الإنسانية التي يكون عليها الجزاء حسناً أو سوءاً لقوله تعالى: ((وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ))^{٣٢} وقوله تبارك وتعالى: ((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))^{٣٣} وقوله تعالى: ((بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

٣٢ الكهف/ ٢٩ .

٣٣ الزلزلة/ ٧-٨ .

خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))^{٢٤}

فمن الروايات التي رووها في رفض الجبر ومحاربتة:
 — "قال عبد الله بن دينار: كنت جالساً مع عبد الله بن عمر فأتي بلبن فلما أراد أن يشرب قلت: إنك صائم. فقال: أراد الله أن يسقيني فمنعني. وكان عمر وابن مسعود وأبي بن كعب جالسين فقال عمر: سبق الشقاء للشقي وشقي في بطن أمه. فقال أبي: إنه ليس كذلك، ولكنهم شقوا وسعدوا بأعمالهم التي عليها حمدوا وذموا. قال عمر: صدقت، سبقت رحمة الله غضبه، ولولا ذلك لهلكوا"^{٢٥}.

^{٢٤} البقرة/ ٨١-٨٢.

^{٢٥} المسند/ ح ٨٠٥.

– "وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله أمرني أن أعلمكم مما علمني في هذا اليوم قال: خلقت عبادي ليعبدوني، فأتتهم الشياطين فآغتالهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وحرمت عليهم ما أحللت لهم)"^{٣٦}.

وفي هذا الحديث دلالة على أن الأمر ليس جبراً من الله تعالى، فهو سبحانه أنزل شرعه وأمر خلقه بعبادته، ولكنهم اتبعوا أمر شياطينهم بأنفسهم، وعليهم أن يتحملوا تبعه ذلك وعاقبته الوخيمة.

– "وقال صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي يوم القيامة، لعنهم الله على لسان سبعين

٣٦ المسند/ح ٨٠٤.

نبياً قبلي) قيل : فمن هم يا رسول الله؟. قال : (القدرية والمرجئة) قيل : فمن المرجئة؟. قال : (الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، والقدرية الذين يعملون بالمعاصي ويقولون : هي من الله إجبار ، أما ولو شاء الله ما أشركنا ولا عصينا)^{٣٧}.

وقضية الجبر والاختيار تحتاج إلى دراسة مستفيضة من التحليل والمناقشة والموازنة بين الأدلة الشرعية والعقلية ، وكذلك مناقشة الروايات الواردة عند الإباضية ، لكن ليس هنا محلها .

ب. رواية معارضة لكتاب الله : إذا كانت الروايات معارضة لكتاب الله تعالى فإن علماء المدرسة الجابرية

٣٧ المسند/ح ٨٠٦.

كانوا يردونها، ويستمسكون بكتاب الله، ولا يبالون
بشأن الشائعين ولا بزعم الزاعمين.
وهاكم أمثلة على ذلك:

— "قال جابر بن زيد: سئل ابن عباس عمن زعم أن
العباد لا يقدرّون على الأخذ بما أمروا به، وعلى الكف
عما نهوا عنه، ولا يستطيعون ذلك، وإنما هو معمول بهم
فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستكون من
بعدي شياطين في جثمان الرجال، يأتون المجالس
وكلهم يكذب على الله ورسوله، فتلك الأحاديث الكاذبة
ونحوها من أولئك الشياطين من الإنس يوحىها إليهم
إخوانهم من الجن ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم)"^{٣٨}.

— "قال الربيع: أخبرنا بشر بن إسماعيل بن عُلَيَّة عن داود بن أبي عقيل عن أبي هند عن الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها فقالت: ثلاثة من تكلم بواحدة منها فقد أعظم على الله الفرية، من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست وقلت: يا أم المؤمنين انظري ولا تعجلي، ألم يقل الله: ((وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى))^{٣٩} ((وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى))^{٤٠} فقالت عائشة رضي الله عنها: أنا أول هذه الأمة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: (ذلك جبريل عليه السلام، ولم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رأيته قد هبط من السماء فسد جسمه

٣٩ النجم/ ١٣.

٤٠ النجم/ ٧.

ما بين السماء والأرض) ألم تسمع لقوله تعالى : ((لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ))^{٤١} قال مسروق : تفسير هذه الآية دليل على ما روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى))^{٤٢} ((لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى))^{٤٣}.

ثم عاد الحديث إلى ابن عليّة فقال : قالت عائشة رضي الله عنها : ومن زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه فقد أعظم على الله الفرية، لأن

٤١ الأنعام/ ١٠٣.

٤٢ النجم/ ١١.

٤٣ النجم/ ١٨.

الله تعالى يقول: ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ))^{٤٤}.

ومن زعم أن محمداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ((قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ))^{٤٥ ٤٦ ٤٧}.

٤٤ المائدة/ ٦٧.

٤٥ النمل/ ٦٥.

٤٦ المسند/ ح ٨٢٤.

— "قال الربيع: قال أبو عبيدة: بلغني عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: إنه كائن قبل الساعة زمان، أهله الجهلة، علماؤهم السفهاء، وأمرؤهم المتكبرون، وقراؤهم المتصنعون، فعند ذلك يضع الشيطان مصائده، إذا تفكروا في الخالق شبهوه بالخلق، يأتون بروايات فيذكرون أنها عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويحدون الله حداً، يصفونه بصفات المخلوقين، فإذا رأيت تلك الفتنة — ولا فتنة أضر منها — فاعتصموا منها بالقرآن، فإن فيه نور من الظلمة، والبيان من الشبهة، والنجاة من كل هلكة، وفيه الهدى من الضلالة"^{٤٧}.

ج. رواية غير موافقة ولا معارضة لكتاب الله : أحياناً تأتي الروايات بأمر غيبي ، لكن لا يوجد له في القرآن الكريم إثبات جلي ولا نفي صريح ، فنجد أصحاب هذه المدرسة يسلكون فيها مسلك الاعتدال ، فهم قد يروون الروايات في ذلك ، ولكن بدون أن يرفعوها إلى عقيدة قطعية يضل من يخالفهم ، ولا يقطعون عذره بشرط أن لا يقطع هو عذرهم ، وأبرز قضية في ذلك طرحت في حقبة البحث هي مسألة عذاب القبر ، بل ربما هي القضية الوحيدة .

نجد فريقاً منهم وعلى رأسهم الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه يثبتون عذاب القبر ، ويسوقون في ذلك الروايات ، لكنهم دون أن يصادروا أو يغيبوا الرأي

الآخر، أو يقطعوا عذر أصحابه، ولذلك نرى دقة عبارة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي عندما قال: "وكان جابر بن زيد ممن يثبت عذاب القبر"^{٤٨} وبهذه العبارة يكشف لنا الإمام أبو عبيدة رضي الله عنه أن هناك فريقاً من الفقهاء يثبت عذاب القبر والإمام جابر بن زيد منهم، وطبعاً هذا الإثبات هو من باب الرأي، ولذلك لا نرى هذه اللهجة في القضايا القطعية، بل نرى تشديد النكير على من ينكرها، ووصفه بالكفر تارة وبالشرك تارة أخرى، ولذلك وجد في المذهب على طول خطه العقدي من يقول بعذاب القبر ومن لا يقول به ومن يتوقف فيه.

٤٨ المسند/ح ٤٨٧.

ونحن لو درسنا الروايات التي تثبت عذاب القبر نجدها لا تحمل وعيداً على من ينكره، بخلاف الروايات التي جاءت بالعقائد القطعية الثابتة بكتاب الله تعالى، وطبعاً ما يقال في عذاب القبر يقال في نعيمه.

وهذا عرض لبعض الروايات الواردة عند فقهاء المدرسة الجابرية:

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن

أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة^{٤٩}.

—"الربيع عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوتاً حين غربت الشمس فقال: (هذه أصوات اليهود يعذبون في قبورهم)"^{٥٠}.

—"جابر بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكره عند غيره— أنه عليه السلام قال: (إذا وضع الميت في قبره، وسوي عليه، فإنه يسمع نعال القوم حين ينصرفون عنه، لأنه حمل من بيته وروحه مع الملائكة، فإذا وضع في قبره يأتيه ملكان أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقعدانه فيقولان

٤٩ المسند/ح ٤٨٤.

٥٠ المسند/ح ٤٨٧.

له : يا هذا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟. فإن كان مؤمناً قال : الله ربي ومحمد نبيي . فيقال له : على هذا أحييت وعليه أمت وعليه تبعث، انظر عن يسارك، فيفتح له باب في قبره إلى النار فيقال له : هذا منزلك لو عصيت الله، أما إذ قد أطعته فانظر عن يمينك، فيفتح له باب في قبره إلى الجنة، فيدخل عليه برد منزله ولذته، فيريد أن ينهض فيقال له : لم يأت أوان ذلك، ثم سعيداً، ثم نومة العروس، فما من شيء أحب إليه من قيام الساعة، حتى يصير إلى أهل ومال وإلى جنة النعيم، وأما إذا كان كافراً فيقعده انه فيقولان : من ربك؟ فيقول : ما أدري. فيقولان : ما تقول في هذا الرجل؛ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم؟ فيقول : كنت أقول فيه كما يقول الناس. فيقولان : لا دريت ولا تليت، على هذا عشت،

وعليه مت، وعليه تبعث، انظر إلى يمينك، فيفتح له باب من الجنة، فيقال له: هذا منزلك لو أطعت الله، فأما إذ قد عصيته فانظر عن شمالك، فيفتح له باب من قبره إلى جهنم، فيدخل عليه غم منزله وأذاه، وما من شيء أبغض إليه من قيام الساعة، فيصير إلى العذاب)^{٥١}.

رغم هذه التفاصيل الدقيقة التي جاءت بها الروايات في مسألة عذاب القبر ونعيمه، فإن الإمام أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة يكتفي بالقول تعقيباً عليها: "وكان جابر ممن يثبت عذاب القبر" أي أنها لا تعدوا أن تكون رأياً يراه الإمام جابر رضي الله عنه، لأنه لا يقال مثلاً: كان جابر ممن يثبت الجنة والنار. لأنها قضايا قطعية

يهلك من ينكرها، فهي معلومة من اعتقاد المؤمن ضرورة، ولذلك نجد علماء المدرسة الجابرية يتشددون غاية التشدد فيمن يخالف عقيدة قرآنية قطعية، فيروون في ذلك التشديد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومن الأمثلة في ذلك:

■ اللعن لمن يفرق بين القول والعمل:

- "قال الربيع بن حبيب: بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله المرجئة على لسان سبعين نبياً قبلي) قيل: وما المرجئة يا رسول الله؟ قال: (الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل)"^{٥٢}.

ولذلك نجد التعليق على مجموعات الروايات التي تدل على التشديد على من يفرق بين القول والعمل بالقول: "فهذه الأحاديث كلها تدل على الإيمان أنه قول وعمل، ومن قال غير ذلك فقد كفر بمقالته"^{٥٣}.

■ الوصف بالفرية على الله لكل من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه أو أنه لم يبلغ رسالته أو أنه يعلم الغيب:

— "عن مسروق قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها فقالت: ثلاثة من تكلم بواحدة منها فقد أعظم على الله الفرية، من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.... ومن زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه فقد أعظم على الله الفرية...."

ومن زعم أن محمداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية^{٥٤}.

■ الوصف بالكفر لمن كذب بالقدر :

– "وقال صلى الله عليه وسلم : (ما كان كفر إلا مفتاحه تكذيباً بالقدر)^{٥٥} ، وكذلك من كفر بحرف من القرآن الكريم ؛ قال : (ومن كفر بحرف فقد كفر بالقرآن أجمع)^{٥٦}.

■ الوصف بالشرك لمن لا ينزه الله تعالى :

– "قال جابر بن زيد : حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يوشك الشرك ينتقل من

٥٤ المسند/ ح ٨٢٤، والحديث قد سقناه سابقاً بتمامه.

٥٥ المسند/ ح ٧٩٧.

٥٦ المسند/ ح ٨٠٩.

ربع إلى ربع، ومن قبيلة إلى قبيلة) قيل: يا رسول الله؛ وما ذلك الشرك؟ قال: (قوم يأتون بعدكم يحدون الله حداً بالصفة)^{٥٧}.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، بل نجدهم يروون الروايات بالتشديد في مخالفة العمليات الواردة في كتاب الله تعالى فضلاً عن الغيبيات، في حين نرى تلك العبارة الدقيقة من أبي عبيدة التي تدل على أن المجال واسع في مسألة عذاب القبر ونعيمه، كما أننا لا نجد شدة عندهم من خلال الروايات في حق من لا يثبتهما، وبالتالي لا تعدو المسألة أن تكون مسألة رأي.

٢ . قطعية الدلالة :

والشرط الثاني لاعتبار القضية الغيبية عقدية قطعية هو أن تكون دلالتها نصية، أي لا تحمل أكثر من معنى، لأن الاحتمال يترك نسبة من الصواب عند الأفراق المختلفة؛ ولو كان الفريق الأضعف، بل لو ظهر لأحد الأفراق أنه هو الأقوى حجة والأكثر اتباعاً لما كان ذلك مسوغاً له أن يقطع عذر من خالفه بدون حجة بينة :

— "قال أبو غانم بشر بن غانم الخراساني رحمه الله تعالى : سألت أبا المؤرج عن الاختلاف في الرأي أو اختلاف السلف قبلنا في رأيهم : أليس قد يسعهم الاختلاف ، ولم يبرأ بعضهم من بعض ؟ قال : بل ذلك واسع . قلت : فإذا أخذ بعض الناس ببعض تأويلهم ، وهو

خلاف ما اجتمع عليه المسلمون، هل يبرأ منهم بعضهم من بعض أو لا؟ فقال لي مغضباً: ما صيرك على البراءة يا هذا، إنك إليها لسريع، ما يسع من كان قبلنا فهو يسعنا^{٥٨}.

وقد روى أئمة هذه الحقبة رواية تدعم ذلك، وهي عبارة عن حادثة وقعت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، استنتج منها الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة سعة الاختلاف في معاني التأويل والتفسير لأوجه القرآن الكريم:

٥٨ المدونة الصغرى، ج ٢؛ ص ٩٢.

— "أبو عبيدة قال : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير قراءته هو ، قال عمر : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فلببته بردائي فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ؛ إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل : (اقرأ) فقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هكذا أنزلت) قال عمر : فقال لي : (اقرأ) فقرأت ، فقال : (هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، فاقرأوا ما تيسر منه) .

قال الربيع : قال أبو عبيدة : اختلف الناس في معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (نزل القرآن على سبعة

أحرف) قال بعضهم: على سبع لغات. وقال بعضهم على سبعة أوجه: وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج. وقال بعضهم: حلال، وحرام، وأمر، ونهي، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن، وأمثال، وقد قيل: لا يوجد حرف واحد من القرآن يقرأ على سبعة أوجه. والله أعلم بحقيقة التفسير^{٥٩}.

— "وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من كلمة إلا ولها وجهان، فاحملوا الكلام على أحسن وجوهه)، وقد قيل: لن يتفقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوهاً"^{٦٠}.

٥٩ المسند/ح ١٤.

٦٠ المسند/ح ٨٧٩.

ومعنى ذلك أنه لا تفسيق ولا تضليل ولا تكفير في مسألة يحتملها الرأي، ومن يبرأ من مسلم برأي فهو حقيق براءة المسلمين منه، وعبرة المسلمين في ذلك؛ "من برئ منا برأي برئنا منه بدين".

ولكن بطبيعة الحال لم يكن أصحاب المدرسة الجابرية يتهاونون فيمن يخالف قطعي القرآن الكريم، وكانوا يشنعون على المرجئة الذين يروون روايات تخالف قطعيات القرآن الكريم، ويردون عليهم رواياتهم، ويعدون ذلك من ضلالهم وانحرافهم، ويحكمون على مثل هذه الروايات بأنها من الدخيل والإسرائيليات.

مثال ذلك تجسيم الله تعالى، والزعم أن الله خلق آدم على صورته؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً:

— "قال الربيع: وأخبرنا أبان قال: حدثنا يحيى بن إسماعيل عن الحارث الهمداني قال: بلغ علياً أن قوماً من أهل عسكره شبهوا الله وأفرطوا، قال: فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اتقوا هذه الفارقة. فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ وما الفارقة؟ قال: الذين يشبهون الله بأنفسهم. فقالوا: وكيف يشبهون الله بأنفسهم؟ قال: يضاهئون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب إذ قالوا: خلق الله آدم على صورته. سبحانه وتعالى عما يقولون، سبحانه وتعالى عما يشركون، بل الله الواحد الذي ليس كمثله شيء، استخلص الوجدانية والجبروت، وأمضى المشيئة والإرادة والقدر والعلم بما هو كائن، لا منازع له في شيء، ولا كفؤ له يعادله، ولا ضد له ينازعه، ولا سمي له يشبهه، ولا مثل له يشاكله، ولا

تبدو له الأمور، ولا تجري عليه الأحوال، ولا تنزل به الأحداث، وهو يجري الأحوال، وينزل الأحداث على المخلوقين، لا يبلغ الواصفون كنه حقيقته، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته، لأنه ليس له في الخلق شبيه، ولا له في الأشياء نظير، لا تدركه العلماء بألبابها ولا أهل التدبير بتدبيرها وتفكيرها، إلا بالتحقيق إيماناً بالغيب، لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين، وهو الواحد الذي لا كفؤ له ((وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ))^{٦٢}^{٦١}.

٦١ الحج/ ٦٢، لقمان/ ٣٠.

٦٢ المسند/ ح ٨٣٦.

— "جابر قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: يا ابن عباس؛ أخبرني عن ربك كيف هو؟ وأين هو؟ فقال ابن عباس: ثكلتك أمك يا ابن الأزرق، إن الله لا كيف له غير الخلق، خلق الخلق وهو خالق لكيفيتهم، وهو بكل أين؛ يعني بكل مكان. قال: فسكت ابن الأزرق، قال ابن عباس: لا تمضي الليالي والأيام حتى يتفقه قوم في الشرائع وهم عن توحيد الله غافلون، قوم يصفون ربهم بالبشر، ويسمون من خالفهم كافرين، وهم أولى بذلك وهم الظالمون، يختلفون من بعد ما جاءتهم البينات، يأخذون بالشبهات والمتشابهات وروايات أهل الكتاب ويسمون المتفقهة، وليسوا كذلك، وعند ذلك تمنع السماء قطرها والأرض نباتها

وتنقص من أطرافها، وعند ذلك يحبط الله أعمالهم ويسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب" ٦٣.

رد المتشابه إلى المحكم

جعل الله تعالى في كتابه العزيز آيات محكمات وأخر متشابهات لحكم ذكرنا بعضها في غير هذا الموضع^{٦٤}، وإنما يعيننا هنا منهج الإباضية في فترة المدرسة الجابرية، فعلماءها كانوا يردون المتشابه إلى المحكم وفق قواعد اللغة العربية ومدلولاتها.

٦٣ المسند/ ح ٨٤٢.

٦٤ راجع جواهر التفسير "جزء خاص في المحكم والمتشابه"؛ أحمد بن حمد الخليلي، وراجع كذلك كتابنا "رؤية تأريخية".

• فمن ردهم للمتشابه إلى المحكم في كتاب
الله الحكيم :

—"قال جابر : سئل ابن عباس عن الله ؛ هل يخلو منه مكان ؟ قال : قال الله تعالى : ((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا))^{٦٥} ، فأخبر عز وجل أنه لا يخلو من مكان ، وأنه شاهد لكل مكان ، حاضر بكل مكان ، على الإحاطة والتدبير ، ((وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ))^{٦٦} ، وقال : ((وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ))^{٦٧} ، وقال :

٦٥ المجادلة / ٧ .

٦٦ يونس / ٦١ .

٦٧ ق / ١٦ .

((وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ))^{٦٨} ، وقال لموسى وهارون :
 ((قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى))^{٦٩} ، وقال :
 ((يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ
 إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ))^{٧٠} ، وقال : ((وَلَا
 يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا))^{٧١} ، وقال : ((وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
 أَحَدٌ))^{٧٢} ، وقال : ((هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا))^{٧٣} وقال :

٦٨ الأنعام/ ٣ .

٦٩ طه/ ٤٦ .

٧٠ النساء/ ١٠٨ .

٧١ طه/ ١١٠ .

٧٢ الإخلاص/ ٤ .

٧٣ مريم/ ٦٥ .

((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى))^{٧٤} وقال: ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ))^{٧٥} وقال: ((أَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ))^{٧٦} وقال: ((يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ))^{٧٧}، ونحو ذلك من القرآن، فأخبر عنه أنه تعالى
لا يخلو من مكان في السموات العلى والأرضين السفلى،
ولا يجوز أن يأخذوا ببعض القرآن دون بعض، لأنه
يصدق بعضه بعضاً، وهو على العرش استوى، وهو على
كل شيء شهيد، وهو بكل شيء محيط، بلا تكييف ولا
تحديد ولا تمثيل ولا تشبيه ولا توهم^{٧٨}.

٧٤ طه/ ٥.

٧٥ فاطر/ ١٠.

٧٦ الملك/ ١٦.

٧٧ السجدة/ ٥.

٧٨ المسند/ ح ٨٥٨.

• وأما رجوعهم إلى لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم فمثاله :

— "قال الربيع : ومصادق ما روينا عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين بإحسان من أن النظر هو الانتظار قول الله عز وجل : ((مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ))^{٧٩} يعني ينتظرون ، وليس بمعنى النظر بالأبصار ، وقال : ((وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ))^{٨٠} ، وقال : ((هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ))^{٨١} ونحوه من القرآن .

٧٩ يس / ٤٩ .

٨٠ ص / ١٥ .

٨١ الأنعام / ١٥٨ .

ومصداق ذلك في اللغة قول القائل : إنما انظر إلى الله ثم إليك . يعني أنه ينتظر ما يأتيه من قبله ، وأما الرؤية فقد تكون بغير البصر ؛ قال الله عز وجل : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ))^{٨٢} ، وقال : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ))^{٨٣} ، وقال : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ))^{٨٤} ، وقوله : ((أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ))^{٨٥} وقال : ((وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ))^{٨٦} ، وإنما يعني

٨٢ الفرقان / ٤٥ .

٨٣ البقرة / ٢٥٨ .

٨٤ البقرة / ٢٤٣ .

٨٥ يس / ٧٧ .

٨٦ آل عمران / ١٤٣ .

بهذا كله وأشباهه العلم واليقين، ولا يريد رؤية الإنسان .

ومصداق ذلك في لغة العرب؛ يقول القائل: لقد رأيت لفلان عملاً وورعاً وفهماً وعلماً، ورأيت له فهماً ومعرفة، وهذه الأشياء لا تعين بالأبصار، ولكنها تعرف وتعلم بما ظهر من أعلامها الدالة عليها، وإذا رأيت رجلاً عالماً يأتي وما يذر حكيماً في أمره مصيباً في فعله، قلت: رأيت لفلان عقلاً ومعرفة وإحكاماً. وإن كان كافاً عن المحارم؛ قلت: رأيت له ورعاً وأدباً صالحاً.

قال الكميت بن زيد :

رأيت الله إذ أثرى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينا

أي مقيمين .

وقال أيضاً :

رأيت الله أهلك قوم عاد ثمود وقوم نوح أجمعيناً^{٨٧}

وقد حقق أئمة هذه الفترة المتقدمة في موضوع المتشابه وتأويله بما يتفق مع المحكم تحقيقاً دقيقاً منطلقاً من كتاب الله تعالى ، ومتلازماً مع معطيات اللغة ، وغير متعارض مع بدهيات العقول السليمة ؛ نسوق كلامهم هنا بأكمله لنفاسته وقيمته العلمية ، وحتى يقف القارئ على تنبه هؤلاء العلماء -تتلمذاً على أئمتهم من

٨٧ المسند / ح ٨٥٩ .

الصحابة- على الكيد الإسرائيلي الذي أراد أن يلج من باب التشابه، فقاموا بسده بإحكام من أول الأمر.

- يقول الربيع بن حبيب: "إن سأل المسترشد عن تفسير آي التشابهات، والدلالة على معانيها من قول الله عز وجل: ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) وقوله: ((وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا))^{٨٨} وقوله: ((بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ))^{٨٩} وقوله: ((لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ))^{٩٠} وما أشبه ذلك من كتاب الله الذي فسرنا فيما مضى من كتابنا

٨٨ الفجر/ ٢٢.

٨٩ المائدة/ ٦٤.

٩٠ ص/ ٧٥.

بالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين بإحسان .

فقال السائل : ما الدليل على صدق تفسيركم؟ وما الشهادة عليه من الكتاب واللغة المعقولة، فإنما خاطبنا الله بما نعقل، وإلا فليس للمخاطبة عندنا معنى في الاستواء واليد والعين، وما أشبه ذلك، ولا يجوز أن يكون إلا على ما نعقل؟.

قيل للسائل : إن جميع ما سألت عنه متشابه لا يدرك علمه بظاهره ولا بنصه، لأن النص واحد والمعاني متباينة، فلا بد من كشف معانيها وإيضاح سبلها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من كلمة إلا ولها وجهان، فاحملوا الكلام على أحسن وجوهه)، وقد

قيل: لن يتفقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوهاً. وقال الحسن: تعلم العربية وحسن العبارة. وقيل: ليس من كلمة إلا ولها وجه وقفا وظهر وبطن. وإنما معنى ذلك عندنا الكلام المتشابه الذي يتفق لفظه ويختلف معناه، فجوابنا في ذلك وبالله التوفيق في قوله تعالى: ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) ما قاله عبد الله بن عباس وابن عمر والحسن ومجاهد أنه ارتفع ذكره وثناؤه ومجده وعظمته، تعالى عما قال المندد أن له أنداداً وأشباحاً، تعالى الله عن ذلك.

وأن ابن عمر ارتعد فرقاً وشفقاً حين وصف الله بالزوال والانتقال، وقال: هذا كلام اليهود أعداء الله.

وقد وصفنا أباطيلهم فيما مضى من كتابنا.

وجميع ما قالوا موجود في لغة العرب؛ يقال: استوى فلان على العراق. أي استولى أمره وملكه، ويقال: أي احتوى عليه وحازه، ويقال: استولى فلان على سريره ومجلسه. وقال لمن كان مائلاً فاعتدل: قد استوى يريدون انتصابه بعد ميله، واعتداله بعد عوجه، وقال: استوى فلان وفلان. أي اتفقا في الصفة والنعته، فلما كانت الكلمة محتملة المعاني؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((احملوا الكلام على أحسن وجوهه)) قلنا: لا يخلو قوله: ((عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) من أحد معنيين: إما ما قاله ابن عباس وابن عمر والحسن ومجاهد من علو الذكر واستواء المجد والقهر، أو يكون ما قالت اليهود المشبهة لله بأوصاف خلقه؛ إذ قالت: إنه لما فرغ الله من خلق السموات والأرض استوى على

العرش، ووضع إحدى فخذييه على الأخرى واستراح. فكذبهم الله بقوله: ((وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ))^{٩١} ويقوله: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)) وما أشبه ذلك من كتاب الله عز وجل، فالزموه الوهن والعجز والتعب والنصب، قاتلهم الله أنى يؤفكون، لو جاز أن يكون قوله: ((عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) على ما قاله المشبهة: أن ذلك على ما نعقل من استوى الرجل على سريرته ومجلسه. لجاز أن يكون قوله: ((ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ))^{٩٢} يعني بالاستواء الميل والعوج، وفي ذلك ما يوجب عليه الميلان والاعوجاج، تعالى الله عن ذلك وتقدس، فإذا بطلت هذه الصفة وهذا

٩١ ق/ ٣٨.

٩٢ البقرة/ ٢٩.

التأويل لما فيه من النقص ثبت ما قال ابن مسعود وابن عمر، وبطل ما قالت اليهود المشبهة.

ووجه آخر لو جاز أن يكون الاستواء على ما تعقل المشبهة من أنفسها لوجبتم المماساة والحدود والنهاية، وفي هذه الصفة إبطال قوله: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)) ولو جاز أن يكون الاستواء على ما تعقل المشبهة من أنفسها لجاز أن يكون قوله: ((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا))، إنما يعني به فيما زعمت المشبهة على ما تعقل من كون الرجل مع الرجل، وفي ذلك يثبت التحديد والنهاية والانتقال، وهذه صفة الخلق، تعالى الله عن هذه الصفة، ولكنه على

العرش وهو معهم أينما كانوا في وقت واحد ، بلا كيف ولا تحديد ولا وصف كما شاء ، على خلاف ما تعقل من أنفسها ، لكنه معهم بالتدبير والإحاطة والعلم ، لا يمثل ولا يتوهم ، تعالى الله عما يتوهم الجاهلون .

ولو جاز لقائل أن يقول : ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)) أن علمه معنا أينما كنا ، وليس في نص الآية ، لجاز لمن خالفهم إنما يعني بقوله : ((اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ))^{٩٣} أن علمه مستو على العرش ، وإن لم يكن في نص الآية ، فلما لم يجز لقائل أن يقول ذلك ، ولم يتأوله ، لم يجز للمشبهة تأويلها ، ومن أين جاز له أن يتأول قوله ((عَلَى

الْعَرْشِ اسْتَوَى)) على ما يعقل، ولم يحز أن يتأول قوله:
((هُوَ مَعَهُمْ)) على ما يعقل!^{٩٤}.

وهذا النص المتقدم مهم جداً حيث يوقفنا على مجموعة
حقائق؛ نذكر أهمها:

O أن مسألة استغلال التشابه في القرآن الكريم قد
أثيرت في وقت مبكر جداً من عهد الإسلام، فهي قد
وجدت منذ زمن الصحابة الكرام، وقد تفتنوا لها
وعملوا على معالجتها.

O أن الباغيين بالدس في عقائد الإسلام وتحريفها إلى المفاهيم الجاهلية، قد عمدوا إلى التشابه، فما من عقيدة دخيلة على الإسلام إلا وقد عمد المغرضون فيها إلى متشابه من آي القرآن الكريم، وهو ما حذر منه القرآن ذاته بقوله تعالى: ((فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ))^{٩٥}.

O أن الذي يقف وراء هذه الحملة الخبيثة التي تبغي إفساد عقائد الإسلام عن طريق التشابه هم اليهود، وأن ما يذهب إليه الصحابة والتابعون بإحسان هو خلاف ما يذهب إليه المشبهة تماماً، بل قد ردوا عليهم وكشفوا أباطيلهم وتأويلهم الفاسد.

٩٥ آل عمران/ ٧.

0 أن حمل التشابه على ظاهره هو أيضاً تأويل، ولكنه تأويل باطل يخالف محكم الكتاب العزيز واللغة المعقولة والعقول السليمة.

0 كشف النص عن الفرق بين سبيل الهوى الذي اتبعه المشبهة "على ما تعقل المشبهة من أنفسها" الذي يشبه الخالق بال مخلوق، وبين سبيل العقل القائم على رد التشابه إلى المحكم، والمنزه لله تعالى، والذي يعرف معاني الألفاظ ودلالاتها، ويعطي كل لفظ معناه المناسب.

O أن ما نراه من روايات في تجسيم الله تعالى ونحوها هي في أصلها تنصيب^{٩٦} لمحاولات أهل الكتاب وخاصة اليهود، وأن الواجب تجاهها كشفها وبيان عوارها، وتنزيه السنة النبوية عنها، وبطبيعة الحال العمل على تنقية السنة منها.

O أن فقهاء المدرسة الجابرية عندما ردوا على المشبهة إنما سلكوا في ذلك مسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين؛ "الذي فسرنا فيما مضى من كتابنا بالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين بإحسان".

٩٦ التنصيب هو إدخال الآراء والمعتقدات البشرية في الشريعة عن طريق وضع الروايات على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مميزات المنهج العقدي الإباضي

أثمر هذا المنهج العقدي في المذهب الإباضي حسيما أصلته المدرسة الجابرية الكثير من الميزات التي قد لا يوجد بعضها -وربما أغلبها- لدى مدارس إسلامية أخرى، هذه الميزات تجلت فيها أصالة العقيدة الإسلامية ونقاء منبعها وحصانتها من الاختراق والتشويه نتيجة التزام منهج التواتر في نقلها والقطع في دلالتها، ونسوق هنا أهم هذه الميزات:

١. التنزيه الكامل لله تعالى :

وفق الله تعالى الإباضية إلى صفاء العقيدة وسلامتها في نظرهم إلى الذات العلية، حيث نزهوا الله عن كل

نقص، وقد سوه عن التجسيم والتشبيه، فلم يشبهوه بخلقه أو يشبهوا خلقه به جل وعلا، وإنما وصفوه بالكمال والجلال، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وهو العليم السميع البصير، على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وأنه تعالى لا يدرك بعين، ولا يطلب بأين، سبحانه وتعالى.

— "قال جابر بن زيد : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صفة الله تعالى ، فسكت قليلاً رجاء أن ينزل عليهم عذابه ، ونزل عليه جبريل عليه السلام بسورة

الإخلاص: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ،...)) إلى آخرها^{٩٧}.

— "قال الربيع: بلغني عن أبي مسعود عن عثمان بن عبد الرحمن المدني عن أبي إسحاق والشعبي قال: كان علي بن أبي طالب يقول في تمجيد الله عز وجل: الحي القائم، الواحد الدائم، فكاك المقادم، ورزاق البهائم، القائم بغير منصفة، الدائم بغير غاية، الخالق بغير كلفة، فأعرف العباد به الذي بالحدود لا يصفه، ولا بما يوجد في الخلق يتوهمه، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار"^{٩٨}.

٩٧ المسند/ح ٨٢٢.

٩٨ المسند/ح ٨٣٥.

— "أخبرنا أبو قبيصة عن عمير وعن محمد بن يعلى عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن نجدة الحروري أتاه فقال : يا ابن عباس ؛ كيف معرفتك بربك ، فإن من قبلنا قد اختلفوا علينا؟ فقال ابن عباس : أعرفه بما عرف به نفسه من غير رؤية ، وأصفه بما وصف به نفسه من غير تثبيت صورة ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، معروف من غير تشبيه ، متدان في بعده لا ينظر ، ولا يتوهم في ديمومه ، ولا يتمثل بخلقه ، ولا يجور في قضيته ، فالخلق إلى ما علم منقادون ، وعلى ما سطر في المكنون من كتابه ماضون ، لا يعملون بخلاف ما منهم علم ، ولا إلى غيره يردون ، وهو قريب غير ملتزق ، بعيد غير

منفصل، يُحقق ولا يُمثل، يُوحد ولا يُبعض، يُعرف بالآيات ويُثبت بالعلامات"^{٩٩}.

— "قال الربيع: وأخبرنا محمد بن علي الكوفي عن أبي بكر الهذلي عن سعيد بن جبير قال: لما رأى ابن الأزرق أنه لا يسأل ابن عباس عن شيء إلا أجاب فيه قال: ما أجراك يا ابن عباس! قال: وما ذاك يا ابن الأزرق؟ قال: أراك لا تسأل عن شيء إلا أجبت فيه. قال: ويلك؛ هو علم عندي، أخبرني عن كتم علماً، ورجل تكلم بما لا يعلم. قال: أفكل ما تقول به تعلمه؟ قال: نعم؛ إنا أهل بيت أوتينا الحكمة. قال نافع: أسألك عن الذي تعبده؛ كيف هو؟ فسكت عنه ابن عباس استعظماً لما قال، ثم

قال له: أخبرك؛ أن الله هو الواحد بغير تشبيهه، والواحد بغير تفكير، والخالق بغير تكييف، العالم بغير مثال، الموصوف بغير تشبيهه، الدائم بغير غاية، المعروف بغير تحديد، البائن بغير نظير، عزيز قدير، لم يزل ولا يزال، وجلت القلوب لمهابته، وذلت الأرباب لعزته، وخضعت الرقاب لقدرته، لا يخطر على القلوب مبلغ كنه عظمته، ولا تنعقد القلوب على ضمير يبلغه، لا تبلغه العلماء بألبابها، ولا المتفكرون بتدبير تفكيرها، فأعلم الخلائق به الذي لا يصفه بصورة ولا بمثل فيقع الوهم للخلائق عليه. قال نافع: صدقت يا ابن عباس^{١٠٠}.

وهناك الكثير من الأقوال والروايات التي يرويها أئمة الإباضية في تنزيه الله تعالى نكتفي بهذا القدر على سبيل المثال لا الحصر .

٢ . إيمانهم بأنه لا يعلم الغيب إلا الله وحده :

آمن الإباضية أن الله تعالى وحده الذي يعلم الغيب ، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ، وأن الغيب لا يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، فضلاً عن بقية الخلق ، وهذا جعل عقيدتهم محصنة من أن تدخل إليها أوهام البشر وخرافات الأساطير ، وهم مع ذلك قد أحاطوا طريق هذا الغيب الآتي من الله تعالى بالقطع مصداقاً لقوله تعالى : ((عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى

غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا))^{١٠١}.

— "قال الربيع: أخبرنا بشر بن إسماعيل بن عُلَيَّة عن داود بن أبي عقيل عن أبي هند عن الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها فقالت: ثلاثة من تكلم بواحدة منها فقد أعظم على الله الفرية.... ومن زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ((قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْعَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ^{١٠٢}.

٣. عدم الغلو في البشر :

وهي ميزة تمثل حقيقة الدين المرتبط بوحى السماء لا بالبشر، وتكاد هذه الميزة يتفرد بها الإباضية في القرون الأولى للإسلام، فلم يقدسوا البشر، ولم يرفعوهم فوق مستواهم، كما فعل البعض حيث رفعوا البشر إلى مستوى الألوهية، ولم يعطوهم أيضاً أي درجة تخرجهم عن إطارهم الإنساني، فلم نجد في رواياتهم الأولى انخراق العوائد لهم، أو انفعال السنن الإلهية لهم على غير ما ركبها الله تعالى، ولم يلصقوا بهم تلك

الأوهام الخيالية التي تسمى الكرامات، فلا ميزان لديهم للبشر إلا بتقوى الله تعالى لقوله عز وجل: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))^{١٠٣}، والناس بهذا القانون سواسية، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بمدى صلته بالإيمانية بالله تعالى، وبمقدار خشيته وتقواه له عز وجل.

والكرامة عندهم هي الاستقامة على التقوى وحدها، قال تعالى: ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))، فلا ميزة في ميزان الحق لأحد غير ذلك حتى

ولو كانوا أولي قرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم،
وسنن الله تعالى ماضية في جميع الخلق لا تحابي أحداً،
سواء كانت هذه السنن هي سنن تشريعية أو سنن
كونية.

— "قال صلى الله عليه وسلم: (إن أمر عليكم عبد حبشي
مجدوع الأنف فاسمعوا وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب
الله)"^{١٠٤}.

— "وقال صلى الله عليه وسلم: (يا فاطمة بنت محمد
ويا صفية عمة محمد اشتريا أنفسكما من الله، فإنني لا
أغني عنكما من الله شيئاً)"^{١٠٥}.

— "الربيع عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : (يا بنيتي ؛ اعلمي لنفسك فإنني لا أغني عنك من الله شيئاً)" ١٠٦ .

— "جابر بن زيد قال : لما نزلت هذه الآية : ((وَأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)) ١٠٧ جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفخذ أفخاذ قريش فخذاً فخذاً حتى أتى إلى بني عبدالمطلب فقال : (يا بني عبدالمطلب ؛ إن الله أمرني أن أنذركم ، فإنني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، إلا إن أوليائي منكم المتقون ، ألا لأعرفن ما جاء الناس غداً بالدين ،

١٠٥ المسند / ح ٨٢٠ .

١٠٦ المسند / ح ٨٩٠ .

١٠٧ الشعراء / ٢١٤ .

فجئتم بالدنيا تحملونها على رقابكم، يا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد؛ اشتريا أنفسكما من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً" ١٠٨.

بل حتى أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام لا يجوز أن يرفعوا فوق بشريتهم، فلذلك حرم الإسلام أن يتوجه إليهم بالعبادة، أو أن يعطوا شيئاً من صفات الألوهية التي تفرد بها الله جل وعلا:

— "جابر بن زيد عنه عليه السلام قال: (لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)" ١٠٩.

١٠٨ المسند/ح ١٠٠٥.

١٠٩ المسند/ح ٩٨.

٤ . صيانة أحكام الشريعة :

لا ريب أن المنهج الواضح السليم في أخذ العقيدة يؤدي إلى تفعيل الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام، وبناءً على سلامة العقيدة عند علماء المدرسة الجابرية القائلة بأن العاصي لله تعالى بمخالفة الأحكام الشرعية "ترك الفرائض وفعل المحرمات" يخلد في نار جهنم أبداً إن لم يتب إلى الله تبارك وتعالى قبل موته؛ بناءً على ذلك قالوا بتلازم العلم والعمل، فلا بد لأحكام الله تعالى أن تنفذ، ولا تجدي "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" شيئاً إن لم يعمل صاحبها بمقتضاها، وإلا لكانت جواز عبور إلى معصية الله تعالى، ولذلك فتجنب معاصي الله وفعل فرائضه -التي هي مقاصد الشريعة-

لا بد من الالتزام بهما، وإلا لما كان لهذه الأحكام وزن عند الناس، ولضيعت حدود الله، وانتهكت رسوم دينه، وأطفئت منارات شرعه القويم.

وقد تفتن هؤلاء العلماء بفعل سلامة منهج العقيدة عندهم إلى الدسائس التي يحكيها أعداء الله تعالى لتفريغ الإسلام من مضمونه، ولا سيما الإسرائيليات التي ولجت إلى المسلمين بغية تسريب عقائد أهل الكتاب إلى دين الله تعالى الخاتم.

نجد عندهم عبارات واضحة -فيما تركوا لنا من مدونات- تربط العقيدة بالعمل، وأن الإنسان لا بد له من أن يأتي بأحكام الله تعالى، ولا يتذرع بالأمني

الفارغة، قال الله تعالى : ((وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))^{١١٠}، وقال سبحانه : ((لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا))^{١١١}، وقال : ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ،

١١٠ البقرة / ٨٠-٨٢.

١١١ النساء / ١٢٣-١٢٤.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ^{١١٢}، وقال جل شأنه: ((فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُ))^{١١٣}.

والروايات التي رواها هؤلاء الفقهاء في هذا المجال كثيرة
جداً، نذكر أمثلة منها :

— "قال الربيع بن حبيب: قال جابر بن زيد : يروى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يدخل الجنة

١١٢ سورة العصر.

١١٣ الزلزلة / ٧-٨.

مخنث ولا ديوث ولا فحلة النساء ولا الركاضة) قيل:
وما الركاضة يا رسول الله؟ قال: (التي لا تغار)^{١١٤}.

— "وقال صلى الله عليه وسلم: (من أتى رجلاً شهوة من
دون النساء أو أتى النساء في أعجازهن فقد كفر)^{١١٥}.

— "وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم
يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم: أشمط زان،
ومفلس مرح مختال، ورجل اتخذ الله بضاعة لا يشتري
ولا يبيع إلا بيمين)^{١١٦}.

١١٤ المسند/ ح ٧٤٣.

١١٥ المسند/ ح ٧٤٨.

١١٦ المسند/ ح ٧٥٠.

– "وقال صلى الله عليه وسلم : (من غشنا فليس منا ، ومن لم يؤثرنا فليس منا ، ومن أحدث في الإسلام حدثاً أو آوى محدثاً فليس منا ، ومن لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا فليس منا) ، قال الربيع : معنى هذا كله البراءة منه" ١١٧ .

"فهذه الأحاديث كلها تثبت الكفر لأهل القبلة ، وهي أكثر من أن تحصى" ١١٨ .

والمقصود بالكفر هنا – حسب رأي الإباضية – بكل تأكيد هو كفر النعمة وليس كفر الشرك المخرج من

١١٧ المسند/ ح ٧٥٣ .

١١٨ المسند/ ح ٧٦٧ .

الملة، وعلى ذلك فمن يخالف فرائض الإسلام أو ينتهك حدوده فهو آثم ضال فاسق، لا نصيب له في الجنة إلا إن تاب وأناب إلى الله تعالى وأقلع عن معاصيه.

— "جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ "لا إله إلا الله" كلمة أَلَّفَ الله بها قلوب المؤمنين، فمن قالها وأتبعها بالعمل الصالح فهو مؤمن، ومن قالها وأتبعها بالفجور فهو منافق)"^{١١٩}.

وهكذا نرى أن فقهاء المدرسة الجابرية قد صانوا أحكام الشريعة من التعطيل أو الانتهاك، وكانوا بمنأى عن تفرغها وتجويفها من مدلولاتها ومقاصدها العظيمة،

ولذلك قالوا رحمهم الله عقب الروايات الواردة في وجوب العمل :

— "فهذه الأحاديث كلها تدل على الإيمان أنه قول وعمل، ومن قال غير ذلك فقد كفر بمقالته"^{١٢٠}.
٥. احترام العقل :

هذا المنهج العظيم الذي اختطه هؤلاء الأئمة حرر العقل المسلم من الأوهام والخرافات التي تصيب العقول البعيدة عن الله تعالى، لأنه منهج قائم على قبول العقائد التي ترد عن الله تعالى بسند متواتر ودلالة قطعية، وهذا قد عصم العقل من الوقوع في فخاخ الأساطير التي يولع

١٢٠ المسند/ ح ٧٧٥.

البشر باعتناقها ، وقد حارب الإسلام الخرافة من جميع أبوابها وبشتى طرقها ، وقد رأينا صدى ذلك في كثير مما رويته ، من ذلك :

■ إزالة الوهم :

هناك الكثير من الأمور الوهمية التي تسري إلى أذهان الناس نتيجة تعطيلهم لعقولهم وجهلهم بحقائق العلم ، ولما كانت الحياة في الجاهلية بعيدة عن منطق العلم فقد هيمنت عليهم تصورات ساذجة حبستهم في مضيق القلق والخوف من لا شيء ، وهذا في حد ذاته محطم لتفاعل الإنسان مع معطيات الحياة ، وبالتالي تحجيم لقدرته الكبيرة التي سخرها الله تعالى له لأجل عمارة

هذا الكون والقيام بالخلافة في الأرض، لذلك جاء الإسلام للقضاء على هذه الأوهام:

— "أبو عبيدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا هامة ولا عدوى ولا صفر) قال الربيع: لا عدوى؛ أي لا يتحول شيء من المرض إلى غيره فيعدو، ولا هامة؛ كان أهل الجاهلية يقولون: إذا مات الإنسان خرجت من رأسه هامة وهي التي تقتله، ولا صفر؛ كانوا في الجاهلية يحرمون شهر صفر عاماً ويحرمون شهر محرم عاماً، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله، وقال آخرون إذا مات أحد في الجاهلية: به صفر وهي التي تقتله. فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك"^{١٢١}.

والمقصود بالعدوى المنهي عنها هنا هي العدوى الناشئة عن الوهم وغير المبنية على دليل علمي وحالها في الوهم كالهامة والصفير، وقد نهى الشارع عنها حتى لا يتوهم أن كل مرض هو معد، فيلحق بالمريض مرض نفسي فوق مرضه، وإلا فإن الشارع يمنع من خلط السقيم ذي المرض المعدي بالصحيح، كما جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه هؤلاء الفقهاء بأنفسهم:

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يرد هائم على مصح) قال الربيع: الهائم الذي جربت ماشيته أو مرضت، والمصح

الذي ليس في ماشيته ما يكره، يعني لا ينزل بماشيته عليه فيضربه، والضرر لا يحل^{١٢٢}.

ومما يدخل في هذا الجانب التحذير من الوسوسة التي قد تصيب الإنسان في مواضع شتى من حياته؛ ومنها موضع عبادته كالوضوء مثلاً:

— "قال أبو عبيدة: عن جابر بن زيد قال: بلغني عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لبدء الوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاحذروه) قال الربيع: وإنما قيل له الولهان لأنه يلهي النفوس^{١٢٣}.

١٢٢ المسند/ح ٧٤.

١٢٣ المسند/ح ٧٤.

■ تحريم التطير والكهانة والسحر :

دأب الإسلام على إبعاد العقل المسلم عن الأوهام والخيالات والشعوذة ونحوها ، ووجهه إلى العلم والحقائق ، واستخراج سنن الله تعالى من حركة الحياة ، وبالتالي وجهه إلى الكشف والإبداع والاختراع ، وتطوير نظام حياته وفق الأساليب العلمية التي سخرها الله تعالى لعباده ، وليس أضر على الإنسان من الجري وراء الأوهام والشعوذات الفارغة التي ليس وراءها أي حقيقة إلا التلاعب بنفسيات الخلق فحسب ، فروى فقهاء المدرسة الجابرية تحريم هذه الأساليب الوهمية الفارغة التي تلقي في نفوس الناس الرعب دون أن يكون لها أي تأثير حقيقي .

— "قال صلى الله عليه وسلم: (من خرج من بيته فرأى ما يكرهه فرجع تطيراً من أجله رجع كافراً)^{١٢٤}.

— "وقال صلى الله عليه وسلم: (يقول ربنا تبارك وتعالى: أنا برئ ممن تطير أو تكهن أو تكهن له أو تسحر أو تسحر له)^{١٢٥}.

وكان أهل الجاهلية يتصورون أن العين والحسد يؤثران في الناس، فصاحب العين أو الحاسد تخرج منه قوى خفية تؤثر في الآخرين، ولذلك كانوا يشوهون خلقه الأشياء التي خلقها الله تعالى سوية دفعاً لهذه العين الموهومة أو

١٢٤ المسند/ح ١٢٩.

١٢٥ المسند/ح ٧٤٥.

الحسد المتخيل، فكانوا يشوهون حلاقة رأس الطفل ويجعلونه على هيئة قزع؛ "والقزع: هو أن يحلق رأس الصبي ويترك منه مواضع متفرقة غير محلوقة تشبيهاً بقزع السحاب، وهو تفرقه إلى قطع غير متراكم ولا مطبق"^{١٢٦}، يفعلون ذلك دفعاً - حسب وهمهم الخرافي - للعين والحسد، فلذلك حرمه الإسلام:

— "الربيع بن حبيب عن مجاهد عن ابن عمر قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القزع)"^{١٢٧}.

١٢٦ المسند: هامش ح ٨٩٣، أبو إسحاق اطفيش.

١٢٧ المسند/ ح ٨٩٣.

وقد أيقن الإباضية أن استغلال العقل الاستغلال الأمثل، وتغذيته بالعلم، وتربيته على التفكير في مخلوقات الله تعالى هو الطريق إلى الإيمان الصحيح، وهو المؤدي إلى معرفة الله الحق، وذات الله جلّ وعلا لا تدرك بالتفكير فيها، وإنما بالاستدلال عليها بالتدبر العقلي في مخلوقات الله عز وجل، ومنها استنتاج السنن الإلهية في خلقه تبارك وتعالى.

وهذا كثيراً ما أكدّه علماء المدرسة الجابرية من خلال الروايات التي رويها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين بإحسان :

— "قال الربيع بن حبيب: حدثني أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اطلبوا العلم ولو بالصين)"^{١٢٨}.

— "ومن طريقه عن النبي عليه السلام قال: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب)"^{١٢٩}.

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)"^{١٣٠}.

١٢٨ المسند/ ح ١٨.

١٢٩ المسند/ ح ١٩.

١٣٠ المسند/ ح ٢٠.

— "أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال : بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رسم المداد في ثوب أحدكم إذا كان يكتب علماً كالدم في سبيل الله ، ولا يزال يناله الأجر ما دام ذلك في ثوبه)"^{١٢١} .

— "قال جابر بن زيد : حدثنا رجل من أئمة أهل الكوفة يكنى أبا أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على قوم وهم يتذكرون ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم سكتوا فقال : (وما كنتم تقولون؟) قالوا : نتذكر في الشمس ومجراها . قال : (كذلكم فافعلوا ، فكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق)"^{١٢٢} .

١٢١ المسند/ ح ٢٧ .

١٢٢ المسند/ ح ٨٢٧ .

— "قال^{١٣٣} : وأخبرنا جويبر عن الضحاك أن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تتفكروا في الله فإن التفكير في خلقه شاغل ، فإنه لا تدركه فكرة متفكر إلا بتصديقه)"^{١٣٤} .

— "قال الربيع : بلغني عن الضحاك قال : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر ذات ليلة على رجل وهو مستقبل القبلة فقال : ما تخلفك بهذه الساعة؟ فقال : صليت يا أمير المؤمنين العشاء ثم صليت ما قضي لي ، فجلست أتفكر في الله . فعلاه بالدرة فقال : ثكلتك أمك ، أفي الله أمرت بالتفكر أم في خلقه؟! ثم تلا عمر : ((إِنَّ

١٣٣ القائل الربيع بن حبيب .

١٣٤ المسند / ح ٨٢٩ .

فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ))^{١٣٥} " ١٣٦ .

٦ . سلامة العقيدة من الإسرائيليات :

من المقطوع به أن المحاولات الإسرائيلية بالطعن والدس في العقائد والشرائع الإسلامية قد بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك جاء القرآن الكريم بالرد عليها في كثير من المواضع ، وقد استمرت هذه الحملة الشعواء بعد ذلك ، فتصدى لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك التابعون بإحسان ، وقد

١٣٥ آل عمران / ١٩٠ .

١٣٦ المسند / ح ٨٤٩ .

نهج هذا النهج الإباضية، فتفطنوا نتيجة منهجهم العقدي للمحاولات الإسرائيلية الخبيثة، فوفقهم الله تعالى لذلك، ومن خلال نظرة موضوعية نستطيع أن نقول: إن المذهب الإباضي -بدفقه الأولى المتمثلة في المدرسة الجابرية- يعدّ بحق هو أقل المذاهب الإسلامية تأثراً بالاسرائيليات، فلذلك تميزت العقيدة عندهم بالسلامة والنقاء، وكانوا لا يترددون في رد الروايات التي يشتم منها الرائحة الإسرائيلية، فكانت عقيدتهم هي عقيدة القرآن الكريم. وإليكم شواهد ذلك:

■ التصدي لأساليب التشكيك العقدي:

— قال^{١٣٧} : وأخبرنا سفيان بن عيينة عن مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال : قالت اليهود : يا محمد ؛ لقد غلب أصحابك اليوم . قال : (بأي شيء؟) قالوا : سألتهم اليهود : هل يعلم نبيكم عدد خزنة النار؟ قالوا : لا ندري حتى نسأل نبينا . قال النبي صلى الله عليه وسلم : (نعم ما فعلوا ، قوم يُسألون عما لا يدرون ، فقالوا : لا ندري حتى نسأل نبينا) ثم قال صلى الله عليه وسلم : (يا أعداء الله ؛ ولكن تسألون نبيكم أن يريكم الله جهرة)^{١٣٨} .

١٣٧ القائل الربيع بن حبيب .

١٣٨ المسند / ح ٨٣٣ .

— "قال^{١٣٩} : وأخبرنا إسماعيل بن يحيى قال : حدثنا سفيان عن الضحاك قال : جاء يهودي إلى علي بن أبي طالب فقال : يا علي ؛ متى كان ربنا؟ فقال علي : إنما يقال لشيء لم يكن فكان ، وهو كائن بلا كينونة ، كائن بلا كيفية ، ولم يزل بلا كيف ، ليس له قبل ، وهو قبل القبل بلا غاية ، ولا تنتهي غاية إليها غايته ، انقطعت الغايات عنده ، وهو غاية الغايات"^{١٤٠} .

— "قال جابر بن زيد : سئل ابن عباس عن قول الله عز وجل : ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ))^{١٤١} الآية ، فقال : كانت اليهود أعداء الله أتوا

١٣٩ القائل الربيع بن حبيب .

١٤٠ المسند : ح ٨٣٧ .

١٤١ الزمر / ٣٩ .

النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: صف ربك. فارتعد النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (كيف أستطيع أن أصف ربي الذي خلق السموات والأرض) فقالوا: لو كنت نبياً لوصفته. ثم قالوا: هو كذا وكذا. فأنزل الله تكذيباً لقولهم: ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)) أي؛ وما عظموا الله حق عظمته، ((وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ)) أي؛ في قدرته، ((وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ))^{١٤٢} أي؛ في ملكه، كيف يستطيع أن يصفني هؤلاء الفسقة ولم يروا سمواتي ولا أرضي، ثم نزه نفسه تعالى فقال: ((سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ))^{١٤٣} لأن الصفة التي كانت منهم شرك^{١٤٤}.

١٤٢ الزمر/ ٣٩.

١٤٣ الزمر/ ٣٩.

١٤٤ المسند/ ح ٨٦٣.

■ التنديد بمن تأثر بالإسرائيليات من المسلمين :

— "قال^{١٤٥} : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال : حدثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمر أنه سئل عن الصخرة التي كانت في بيت المقدس فقال له : إن ناساً يقولون — فذكر قولهم — سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، فارتعد ابن عمر فرقاً وشفقاً حين وصفوه بالحدود والانتقال ، فقال ابن عمر : إن الله أعظم وأجل أن يوصف بصفات المخلوقين ، هذا كلام اليهود أعداء الله تعالى ، إنما يقول : ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) أي : استوى أمره وقدرته فوق بريته .

١٤٥ القائل الربيع بن حبيب .

قال ليث : قال محمد بن الحنفية : قاتل الله أهل الشام ما أكفرهم! أو قال : ما أضلهم! يقولون : وضع الله قدمه على صخرة بيت المقدس ، وقد وضع عبد من عباده يعني إبراهيم عليه السلام قدمه على حجر ، فجعله قبلة للناس تكذيباً لتقولهم ورداً لباطلهم .

قال الحسن : ارتفع ذكره وثناؤه ومجده على خلقه ، ولا يوصف الله تبارك وتعالى بزوال من مكان إلى مكان .

قال : وسئل هشيم عن ذلك وقال : كان أصحابنا يقولون : قهر العرش .

وقال الحسن في قوله: ((ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ)) وقوله: ((ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)) يعني استوى أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه، ولا يوصف الله بصفات الخلق، ولا يقع عليه الوصف كما يقع على الخلق.

وكان عبدالله بن مسعود وعائشة وابن عمر وابن الحنيفة وعروة بن الزبير ينكرون ما يقول أهل الشام في الصخرة، وينهون عنه ويشددون فيه^{١٤٦}.

■ رد روايات أهل الكتاب:

— "قال عباد بن العوام: روي عن عاصم بن كليب أنه قال: رأيت ابن عباس غضب غضباً شديداً لم أره غضب مثله قط، فقال: إنكم لتقولون قولاً عظيماً، يعني التشبيه الذي ذكروا، وإنما يعني يكشف عن الأمر الشديد .

وقال سعيد في حديث عاصم بن كليب: لو علمت من قال هذا التشبيه لفعلت به وفعلت . وقال علي بن عاصم: هو الحق . فأعجبه قول سعيد ، وأنكر رواية الآخرين .

وقال ابن عباس عن الأمر الأول الشديد : أما سمعت قول الأول : قامت الحرب على ساق . أي على شدة ، وقال

عكرمة: ألا ترى أن الحرب إذا اشتدت قالوا: قامت
الحرب على ساق. قال الشاعر:
قومي بنو قيس إذا شمرت حرب وأبدت ساقها لقحت

وقال الحسن وعكرمة: يكشف عن الأمر الشديد .

قال: وأخبرنا عمير عن محمد بن يعلى عن جويبر عن
الضحك عن ابن مسعود، وعن ليث عن طاوس عن
عبدالله بن عمرو بن العاص أنهما قالا: يوشك أن يكون
شيطان لسليمان بن داود عليه السلام أوثقه في البحر
أن يظهر للناس فيحدثهم ويعلمهم التشبيه، يزينون
أحاديثهم بأحاديث أهل الكتاب في صفتهم ربهم. وقال
ابن مسعود: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فلن

يهذوكم وقد ضلوا، إنما هو كذب يصدقونه، أو صدق يكذبونه^{١٤٧}.

— "مر ابن مسعود بشيخ يحدث عن التوراة، فلما رأى ابن مسعود سكت، فقال: وبم يحدثكم صاحبكم؟ فقالوا: ذكر أن الله لما خلق السموات والأرض صعد إلى السماء من بيت المقدس، ووضع رجله على صخرة بيت المقدس، فاسترجع ابن مسعود رضي الله عنه، ثم قال: اللهم لا كفر بعد إيمان. يقولها مراراً، ثم قال: ((وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً))^{١٤٨}، ما أظنه إلا إبليس تمثل في صورته. ثم قال: فهلا أنكرتم عليه وقلتم

١٤٧ المسند/ ح ٨٧٨.

١٤٨ النساء/ ٨٩.

كما قال العبد الصالح إبراهيم عليه السلام: ((لا أُحِبُّ
الآفِلِينَ))^{١٤٩}؛ يقول: الزائل المتنقل. فاتهموا اليهود على
دينكم.

وقال: يَأْتِي على الناس زمان يصلون ويصومون
ويحجون، ولو رميت فيهم بسهمك لم تصب إلا كافراً أو
مناقفاً، لأن الشرك أخفى من ديب النمل على الصخرة
السوداء في الليلة الظلماء، وذلك من إنكارهم ربهم
بقلوبهم حيث وصفوه بالحدود والزوال^{١٥٠}.

١٤٩ الأنعام/ ٧٦.

١٥٠ المسند/ ح ٨٧٩.

اكتفي بهذه الروايات في نقد ورفض علماء المدرسة الجابرية - بما نقلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين بإحسان - لروايات أهل الكتاب، كما أن في ثنايا البحث الكثير من الروايات التي تدور في هذا الفلك.

الخاتمة

بعد إجالة النظر فيما دونه الإباضية "المدرسة الجابرية" من خلال مصادرهم الأولى تبين لنا عمق نظرتهم للأدلة ورسوخ قواعدهم في العقيدة، وتكشف لنا أن منهجهم في العقيدة مستمد من كتاب الله تعالى، وبه حاكموا الروايات الواردة إليهم في العقائد، فقبلوا ما كان متوافقاً معه، وردوا ما عارضه.

كما أنهم فضحوا الدسائس الإسرائيلية التي تبغي تحريف عقائد الإسلام، وكان منطقهم تكذيب أهل الكتاب ورفض ما عندهم، وبالتالي تسقط تلك المقولة الإسرائيلية القائلة "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"

والأخرى القائلة "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم".

وبهذا المنهج تحصنت عندهم العقيدة من التميع والغلو على حد سواء، فلم يضيّع العمل ولم تهملش أوامر الشريعة أو تتعد حدودها، ولم يحصل الانفصام النكد بين النظرية والتطبيق، وفي نفس المقام لم يسمح هذا المنهج بولوج عقائد ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد استطاع هذا المنهج أن يحل الكثير من الإشكالات التي ترد على العقل الإنساني كمسألة الجبر والاختيار، ومسألة حدود العقل وفاعليته في الحياة، ومسألة الروايات الأحادية التي تضمنت قضايا عقدية.

وقد بينت هذه الدراسة النقاط الآتية :

مفهوم المنهج العقدي الذي ارتكز على تعريف محدد للعقيدة وهو : أنها القضايا العلمية الغيبية المأخوذة من شرع الله تعالى التي يجب على الإنسان أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً ، وبالأخذ بها تكون نجاته ، وبالتفريط فيها يكون هلاكه .

وقد تبين من الدراسة أن الإباضية يشترطون لأخذ العقيدة شرطين هما : تواتر السند ونصية الدلالة ، وتحت هذين العنصرين تم بحث آلية أخذ العقيدة من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وكشفت الدراسة عن المنهج العلمي الذي سار عليه الإياضية في التعامل مع متشابهات النصوص، وذلك بردها إلى الآيات المحكمات.

وأخيراً خلصت الدراسة إلى الميزات التي تميز بها هذا المنهج؛ وهي: التنزيه الكامل لله تعالى، وأن لا أحد يعلم الغيب إلا الله تعالى وحده ولو كانوا أنبياء، وعدم الغلو في البشر باختراع ما يسمى بالكرامات لهم، وصيانة أحكام الشريعة من تميعها بتسويغ ترك العمل، واحترام العقل الإنساني، وسلامة العقيدة من الاختراق الإسرائيلي.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يكون قد أقدرني على الكشف عن المنهج العقدي لدى الإباضية وجعله في قواعد مفهومة لطلبة العلم وغيرهم بلغة سهلة سلسلة، كما أنني أرجو من الله تعالى أن لا أكون قد جانبت الموضوعية أو جانفت العلمية في هذه الدراسة التي تحتاج إلى تجرد تام عن الذاتية، والله الموفق لكل خير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	١
مفهوم المنهج العقدي	٦
شروط أخذ العقيدة	١٢
■ تواتر السند	١
■ قطعية الدلالة	٤٨
رد المتشابه إلى المحكم	٥٦
مميزات المنهج العقدي الإباضي	٧٥
١ . التنزيه الكامل لله تعالى	٧٥
٢ . إيمانهم بأنه لا يعلم الغيب إلا الله	٨١
٣ . عدم الغلو في البشر	٨٣
٤ . صيانة أحكام الشريعة	٨٨

- ٩٥ ٥. احترام العقل
- ٩٦ ■ إزالة الوهم
- ١٠٠ ■ تحريم التطير والكهانة والسحر
- ١٠٧ ٦. سلامة العقيدة من الإسرائيليات
- ١٠٨ ■ التصدي لأساليب التشكيك العقدي
- ١١٢ ■ التنديد بمن تأثر بالإسرائيليات من المسلمين
- ١١٤ ■ رد روايات أهل الكتاب
- ١٢٠ الخاتمة